حول خصائص الحضارة الإسلامية

مصطفى محمد طه(*)

تُعدّ الحضارة الإسلامية من أبرز حضارات الكون، التي ظهرت على ظهر هذا الكوكب، منذ أن وطأت قدم الإنسان الأرض لأول مرة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لأنها الحضارة الوحيدة التي ارتبطت بالسماء ارتباطاً عضوياً حياً، وذلك منذ اللحظات الأولى لتشكيلها في التاريخ.

ولعلّ هذا التفرد، هو الذي أضفى على خصائصها وسماتها الوجودية، طابعاً من الدينامية المتفجّرة، مما جعلها تتّسم بسمات فريدة، لم تعرفها أي حضارة أخرى، من الحضارات البشرية الأخرى التي لا تشترك معها في منظومة الوجود والتكوين.

مفهوم الحضارة الإسلامية

عند البحث في خصائص هذه الحضارة، فإنه بداية لا بدّ من معرفة مفهومها؛ وللإجابة عن هذا التساؤل، يمكن القول: إن الحضارة الإسلامية هي كل ما أنتجته الشعوب الإسلامية ـ التي عاشت على الرقعة العريضة من الأرض التي يحدّها غرباً الشريط الصحراوي المداري الممتدّ من المحيط الأطلسي، والمتجه شرقاً حتى سور الصين ـ من إبداعات ومبتكرات عبّرت عن نفسها في صُوَر ماديّة ومعنوية، وجدانية وعقلية، إن هذه المبتكرات جاءت نتيجة لظروف وملابسات تاريخية موضوعية. إن الإسلام بروحه العظيمة وبتسامحه النادر قد شجع التراكم المادي والعقلي لهذه الشعوب، فالحضارة الإسلامية بهذا المفهوم تشمل كل ألوان الفن والأدب والصياغة والعلم والفلسفة.. إلخ، التي أنجزها المسلمون[1] عبر حياتهم المتصلة.

(*) دراسات عليا في التاريخ والحضارة الإسلامية ـ جامعة بيروت العربية.

(1) حسن عبد الحميد: محاولة في نظرية الحضارة الإسلامية: الحضارة الإسلامية من الممارسة العفوية إلى المرحلة العلمية ـ المجلة العربية للعلوم الإنسانية ـ العدد الثاني والعشرون، جامعة الكويت، الكويت، المجلد السادس، ربيع 1986، ص 8.

ولم يكن العرب وحدهم، هم مبتكرو هذه الحضارة بل اشترك معهم سكّان الشرق الأدنى وقسم من إفريقيا، الذين ظلّوا مدّة طويلة منفصلين عن الحضارة الأوروبية، وآخى بينهم الإسلام، دين الدولة ولغة العلم والأدب[2].

ولقد بدأت هذه الحضارة الجديدة تظهر إلى الدنيا ببعثة النبي (ص) ودعوته إلى الإسلام ممّا يعني ارتباطها منذ البداية بالإسلام كدين ودولة وتاريخ، سواء في نشأتها أو خلال نموها أو ازدهارها، ومن ثَمَّ صار لها أثر كبير في تقدّم البشرية يفوق أثر أية حضارة أخرى من الناحية الإنسانية، وقد نبعت هذه الحضارة من أصول وأسس كان لكلّ منها دوره في نشأتها وخصائصها ومُثلها، أهمها: القرآن الكريم، وسيرة النبي (ص) وسنّته، وأمّة العرب، واللغة العربية، والشعوب التي اعتنقت الإسلام، والإطار الجغرافي، بالإضافة إلى بعض التأثيرات الأجنبية التي وصلتها من الحضارات السابقة عليها والمعاصرة لها[3].

ولعلّ في هذا ما يعطي لهذه الحضارة بعدها العالمي منذ اللّحظات الأولى لانبثاقها من رحم التاريخ، وذلك بعد أن عبّر الإنسان المسلم في مختلف أعماله وفي المجالات كافة التي تعكسها نشاطاته، تلك الأعمال التي تدلّ على ما محصّلة تفاعل دوافعه التعبيرية الحضارية الإنسانية مع مقومات حضارة متّسقة ومتجانسة صُبغت بروح الإسلام، فكانت الوحدة التعبيرية فيها بمثابة القاسم المشترك الأعظم[4].

خصائص الحضارة الإسلامية

على الرّغم من أن لكل حضارة من الحضارات المتباينة، التي تفطّر عنها قلب التاريخ البشري المديد خصائص ذاتية مميزة، فضلاً عن كونها تُضفي على تكوينها البنيوي لمسات خاصة، إلاّ أن هنالك سمات مشتركة تجمع ما بين كل الحضارات، باعتبارها إنجازاً بشرياً ـ ولا سيّما في الجوانب المادية منها ـ إلاّ أنه للحضارة الإسلامية خصائص متفرّدة تجعلها تتميّز بملامح وقسمات بارزة.

وقد يتساءل المرء عن أسباب تلك الخصوصية؛ والإجابة تتمثل بالإطار الروحي ـ المتمثّل في القرآن الكريم والسنة النبوية ـ الذي صان هذه الحضارة من الإغراق في المادية وأمدّها بطاقات هائلة من السمّو والمثالية. هذا فضلاً عن المقوّمات الأخلاقية التي وجّهتها لصالح الإنسان بأن أكسبتها مسحة خيرة[5].

(2) ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، الطبعة الثالثة، ترجمة حمزة ظاهر، دار المعارف، القاهرة، 1378هـ ـ 1958م، ص 33.

(3) حسن الباشا: «أصول الحضارة الإسلامية»، مجلة الدارة، العدد الأول، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، السنة الأولى، ربيع الأول 1395هـ ـ مارس 1975م، ص 64.

(4) صلاح الدين سيد البحيري: عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها في الفنون، حوليات كلية الآداب، الحولية الثالثة، الرسالة الثانية عشر: كلية الآداب، جامعة الكويت، 1402هـ ـ 1982م، ص 29 ـ 30.

(5) محمود إسماعيل: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الطبعة الثالثة، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، 1413هـ ـ1992م، ص 48.

وفي ما يلي أبرز السمات التي اتّسمت بها الحضارة الإسلامية، عمّا سواها من حضارات:

السّمة الأولى: الربّانية

إن السّمة الأولى من السّمات الأساسية للحضارة الإسلامية هي الربانية، والربانية - كما يقول علماء العربية - مصدر صناعي منسوب إلى الربّ زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس، ومعناه: الانتساب إلى الربّ أي اللّه، ويطلق على الإنسان أنه رباني إذا كان وثيق الصلة باللّه، عالماً بدينه وكتابه معلماً له. وفي القرآن الكريم: ﴿ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾. (آل عمران: 79). والمراد من الربانية هنا أمران هما: 1 - ربانية الغاية والوجهة. 2 - ربانية المصدر والمنهج. فأما ربانية الغاية والوجهة فنعني بها: أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد، هو حسن الصلة باللّه، والحصول على مرضاته. هذه هي غاية الإسلام، وبالتالي هي غاية الإنسان، ووجهته، ومنتهى أمله: ﴿يا أيها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه﴾ (الانشقاق: 6)، ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ (النجم: 42). ولا جدال في أن للحضارة الإسلامية غايات وأهدافاً أخرى إنسانية واجتماعية، ولكن عند التأمل، نجد أن هذه الأهداف في الحقيقة تخدم الهدف الأكبر، وهو مرضاة اللّه تعالى، وحسن مثوبته، الذي يعتبر غاية الغايات[6].

وأمّا ربانية المصدر والمنهج، فنعني به أن المنهج الذي رسمه الإسلام - منبع الحضارة الإسلامية - للوصول إلى غاياته وأهدافه، هو منهج ربّاني خالص، وذلك لأن مصدره وحي اللّه إلى خاتم رسله. ولم يأتِ هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو إرادة أسرة، أو إرادة طبقة أو إرادة حزب، أو شعب، وإنما جاء نتيجة لإرادة اللّه، الذي أراد به الهدى والنور والبيان والبشرى، والشفاء والرحمة لعباده[7]. كما قال تعالى يخاطبهم: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ (النساء: 174). ﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ (يونس: 57). وقال يخاطب رسوله: ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: 107). ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ (النحل: 89). ﴿وكتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾ (إبراهيم: 1).

إن ما سبق كان بمثابة التأصيل الإيماني للجانب الإلهي في الحضارة الإسلامية - ونعني به الثوابت - والبرغم من ذلك، فإن هنالك ملاحظة حيوية في هذا السياق، هي بمثابة الملمح الأساسي لحضارتنا. ولعله غير خاف علينا بأن الوحي الأعلى عندما كان يتنزّل بالقرآن الكريم، قد رسم معالم الطريق لتكوين كيان حضاري باسق مترع بالقيم السامية كالجمال، والحق، والخير.

---

(6) يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، الطبعة الثانية، مكتبة وهبة، القاهرة، رمضان 1401هـ - يوليو 1981م، ص 7.

(7) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص 32.

وإن كانت معطيات القرآن سواء إبّان العهد المكّي أم المدني، قد جسّدت الخلفية الإيمانية لهذه الحضارة، فإن ريادة النبي (ص) لها، هي التي جعلت منها حقيقة ملموسة في دنيا الواقع البشري.

وهكذا شهد التاريخ البشري ميلاد كيان حضاري ـ وخصوصاً بعد غزوة الخندق ـ لم يكن للبشرية عهد به من قبل عبر أطوار تاريخها المديد. ولهذا تكون الحضارة الإسلامية ـ دون سواها ـ حضارة ربّانية، لأن ملامح وآفاق الهيكل العام والخاص لها قد تكوّنت في ضوء نسق ربّاني وفقاً للأطر الرئيسية التي حدّدها القرآن لمعالم هذه الحضارة التي مثّلت أبرز ظاهرة وجودية في العالم المحسوس للأمة الإسلامية. وحقاً ما ذهب إليه أحد الباحثين حيث رأى أن هذه الحضارة هي الوحيدة التي كانت ربانية في ثوابتها، التي صيغت الصياغة الدقيقة على هَدْي الله ومراده.

السّمة الثانية: الشمولية

لقد جاءت معطيات هذه الحضارة في لحمتها وسداها، بمثابة تطبيق حي لتعاليم هذا الدين الذي جاء من أجل صياغة أنموذج إنساني متمايز في ضوء نسق إيماني. وبالفعل استطاع الإنسان المسلم، أن يُفجِّر ينابيع حضارة باسقة جمعت خَيْرَيْ الدنيا والآخرة، في آصرة ودّية تربو على آصرة الدم واللحم.

ولقد تجسّد هذا الجمع الفريد عبر التلاحم العضوي الحي فيما بين ما هو دنيوي وبين ما هو أخروي. ومن هنا فإن مفاهيم الحضارة في الإسلام، تشي لنا بأنها مفاهيم شاملة، فضلاً عن كونها خالدة، وهذا لأنها من عند خالق الكون وبارئه ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (الملك: 14). وليس أدلّ على طابع الشمول الذي اتسمت به الحضارة الإسلامية من أنها لم تقتصر على الجوانب الروحية كما ذهب إلى ذلك بعض المستشرقين الذي يتّهمون العقلية السامية بالجدب اللهم إلاّ ما يتعلّق بالروحانيات، ولكن هذة الحضارة شملت جوانب الحياة المادية والعقلية والأخلاقية والجمالية فضلاً عن الجانب الروحي[8].

وهكذا تكون الحضارة الإسلامية شمولية حقاً، وذلك لأن جميع أنسقتها التكوينية سواء الثقافية منها أم المدنية، قد توشّت باللّمسة الإيمانية، التي جاءت كإضفاء حي لتعاليم الدين على الواقع الحضاري، بعكس غيرها من الحضارات التي عرفتها البشرية ولم تسعدها أبداً، بل جرّت عليها ويلات العذاب والشقاء، حتى وإن بدا في الظاهر أن هذه الحضارات قد وفّرت لهذا الإنسان الحائر بعض الراحة المادية.

السّمة الثالثة: الأخلاقيّة

إنّ الأخلاق هي مقوّم أساسي من مقوّمات الحضارة. وباعتبار أن الدين الإسلامي هو من عند الله، فإن الأخلاق الرفيعة تُعتبر ضرورة سلوكية لتكوين مجتمع التوحيد الأول،

(8) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 54.

ذلكم المجتمع الذي حمل على عاتقه تكوين هذه الحضارة، عبر نشره لهذا الدين الذي شكّل البنية الأساسية لحضارتنا. وهكذا يتأكّد لنا بأنّ الأخلاق كانت هي في الحقيقة محور ارتكاز بارز لتعاليم هذا الدين الحق وحضارته الباسقة.

وفي هذا السياق يمكن لنا القول بأن القرآن ـ الرافد الأول للحضارة الإسلامية ـ قد احتوى على معطيات ثرّة في الإطار الأخلاقي تُسوّي بين جميع المنتسبين لهذا الدين: ﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات: 13). وكذلك جاءت السنة النبوية لتؤكّد المنزع الأخلاقي لرسالة الإسلام، حيث يقول النبي (ص): «إنما بعثت لاتمّم مكارم الأخلاق». ومن هنا فإن معطيات حضارة الإسلام في هذا المضمار قد أكدت تأكيداً حياً، على مبدأ حيوي، توسّطي في الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيّلوا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين، الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به، فأولئك أحسنوا الظنّ بالفطرة الإنسانية فاعتبروها خيراً محضاً، وهؤلاء أساءوا بها الظن، فعدُّوها شراً خالصاً، فكانت نظرة الإسلام ـ وحضارته ـ وسطاً بين أولئك وهؤلاء[9].

ولعلّ أبرز مظهر سلوكي يرتبط بالحضارة الإسلامية، هي خلقية اللاًعنصرية. فقد سوّى الإسلام نظرياً بين الشعوب دون اعتبار للعرق أو اللون، وباشر الموالي ـ المسلمون من غير العرب ـ مواصلة دورهم الحضاري السابق تحت مظلة الإسلام؛ بل إنهم قد أدّوا الدور الأساسي في التوجيه الحضاري والثقافي في ظل أنظمة وحكومات عربية. إن تلك النزعة (المساواتية) تشكّل طفرة على صعيد التطور الأخلاقي بفضل الحضارة الإسلامية، التي تميّزت عن حضارة الإغريق والرومان. فلقد كان الإغريق ينظرون إلى الشعوب الأخرى على أنهم همج وعبيد. ألم يقل أرسطو أنه لكي يوجد مجتمع حر يجب أن يتأسّس على حساب مجتمع مسترق؟ ألم يعتبر الرومان أنفسهم فقط (مواطنين) وما عداهم متبربرين[10]؟.

السّمة الرابعة: الإنسانية

إن الإنسان هو سيّد الكون ومهندس الحضارة، وقد ثبت تاريخياً، أن هذا الإنسان لا يعجز عن توفير مواد الحضارة إلاّ في ظروف صعبة قاسية، كتلك التي تحدث عنها (توينبي) في نظريته «التحدي والاستجابة»، فكان مما قال: «إن الإنسان أقام حضارته حين كان التحدي مناسباً؛ ففي الأماكن التي خلت من التحدي أو كادت، لم يبرز جهد الإنسان ـ وضرب مثلاً بالمناطق الاستوائية ذات لأمطار والغابات ـ أو كان التحدّي فوق طاقة الإنسان بحيث يصعب عليه مغالبته، ـ وضرب أمثلة ببلاد الأسكيمو ـ حيث البرد والثلج،

(9) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص 124.
(10) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 55.

أو الصحارى، حيث الجفاف وقلّة الماء والارتفاع في الحرارة، فلم تقم للحضارة قائمة، لأن التحدي كان أكبر من قدرة الإنسان»[11].

وعلى الرغم من تلك المكانة المتميِّزة للإنسان وسط الكون، إلاّ أن العالم قد عرف فيما عرف من مذاهب وفلسفات وأفكار، يضرب بعضها بعضاً، اتجاهين فكريين يناقض أحدهما الآخر: اتجاه يؤلّه الإنسان: يجعله إله نفسه، لا رب خَلَقَهُ، ولا إله يُدَبِّر أمره ولا حساب ينتظره، ولا آخرة يصير إليها؛ فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، واتجاه آخر ينظر إلى الإنسان على أنه مجرد «حيوان متطور» أو «حيوان منتج» أو «حيوان اجتماعي»، أما الإسلام فلا يرفع الإنسان إلى مقام الألوهية، ولا يهبط به إلى درك الحيوانية؛ ومع أنه ليس إلهاً، فليس حيواناً. إن نفي الإلهية عن الإنسان لا يعني إثبات الحيوانية له، فالإنسان جنس متميز، كرّمه الله بالعقل، وبالإرادة، وبالروح[12].

وبناءً على تلك الحقيقة اختصّت الحضارة الإسلامية بالطابع الإنساني، فكان الإنسان هو محور هذه الحضارة في التحليل الأخير. وهنا يبرز الجانب الإنساني بحيث لم توظف هذه الحضارة نتاجها في التدمير والتخريب كما هو الحال بالنسبة لحضارة المغول، كذا الحضارة الغربية المعاصرة، بل كانت حضارة بناء وعمران، إنطلاقاً من الرؤية القرآنية التي ترى في الإنسان خليفة الله على الأرض المنوط به عمرانها وازدهارها. لذلك كفلت له العمل والإبداع في إطار من الأمان والسلام. قال تعالى: ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ (**المائدة**: 87). وقال سبحانه: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله﴾ (**الأنفال**: 8). وهكذا كانت الحضارة الإسلامية، حضارة إنسانية، وذلك لأنها ملائمة لفطرة الإنسان وخصائصه المتعدِّدة التي تفرّد بها دون سائر المخلوقات، فضلاً عن أنها كانت مُسايرة لتطلعاته ونشاطاته السوية وقادرة على تلبية حاجاته. وبهذا تكون هذه الحضارة قد أعطتنا في جملة ما أعطت أكمل تصور للإنسان باعتباره كائناً بشرياً خلقه الله تعالى واستخلفه في هذه الأرض من أجل غايات سامية وأهداف نبيلة[13].

السّمة الخامسة: العقلانية

يخاطب الإسلام العقل ويحضّه على التفكير في خلق الكون والوصول ـ ما استطاع ـ إلى شواطئ المعرفة، ومراسي العلم، في هذا يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿إن في خلق السّمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المُسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ (**آل عمران**: 190 ـ 191).

(11) نعمان عبد الرزاق السامرائي: **في التفسير الإسلامي للتاريخ**، مكتبة المنار، الاردن، الزرقاء، 1406هـ ـ 1985م، ص 114.

(12) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص 66 ـ 67.

(13) إبراهيم سليمان وآخر: **المرجع في الحضارة العربية الإسلامية**، ذات السلاسل، الكويت، 1404هـ ـ 1984م، ص 20 ـ 21.

وإذا كانت الحضارة بنت العلم، والعلم هدف وضالة وغاية يسعى المسلم إلى تحصيلها من واقع كتابه الذي آمن به، وتعاليم رسوله (ص)، فليس ثمة شك في أن العلم يدفع إلى الخلق والإبداع والتفكير والتدبُّر، وكلها قِيَم تنبت حضارة وتنشئ معرفة[14].

وهكذا كانت الحضارة الإسلامية حضارة عقلية، أنار العقل جنباتها، مستخدماً في ذلك الاجتهاد الذي زوَّد حضارة الإسلام بدينامية ومرونة أتاحت لها البقاء والاستمرارية ردحاً طويلاً من الزمان، كما أن انهيارها لم يكن إلاَّ انعكاساً طبيعياً لانصراف المسلمين عن هذه المصادر الثلاثة، القرآن والسنة والاجتهاد ـ كما ذهب إلى ذلك محمود إسماعيل ـ وفي الواقع إن هذه الآليات المعرفية، هي التي سمت بالعقل المسلم أيّما سمو. ولذا فنحن في حاجة ماسّة إلى إعادة تشكيل العقل المسلم، وفق النسق الإسلامي بمفهومه الشامل، وذلك حتى يتسنّى لنا تحقيق حضارة إسلامية معاصرة.

السّمة السادسة: الواقعية

إننا نعني بـ «الواقعية» هنا مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعة، ووجود مشاهد، حيث إنه يدلّ على حقيقة أكبر منه، ووجود أسبق وأبقى من وجوده، وهو وجود الواجب لذاته، وهو وجود اللّه الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً. ومراعاة واقع الحياة من حيث هي مرحلة حافلة بالخير والشر، تنتهي بالموت، وتمهد لحياة أخرى بعد الموت، توفى فيها كل نفس ما كسبت، وتخلّد فيما عملت. ومراعاة واقع الإنسان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة، فهو نفحة من روح اللّه في غلاف من الطين، وفيه العنصر السماوي والعنصر الأرضي، وهو ذكر أو أنثى لكل منهما تكوينه ونزعاته ووظيفته، كما أنه عضو في مجتمع لا يستطيع أن يعيش وحده ولا أن يفنى تماماً فيه، ولهذا تصطرع في نفسه عوامل الأنانية والغيرية. ومن هنا لم ينسَ الإسلام ـ وحضارته ـ في توجيهاته الفكرية، وتعليماته الأخلاقية وتشريعاته القانونية ـ واقع الكون والحياة والإنسان بكل ظروفه وملابساته. والواقعية بهذا المعنى ليست نقيضاً للنزعة المثالية المعتدلة في الفلسفة والأخلاق، فإن هذه النزعة مبنية على فطرة الإنسان وتطلعها إلى الترقي وشوقها إلى المثل الأعلى، فهي إذن واقعية مثالية أو مثالية واقعية، حيث سلمت من إفراط غلاة المثاليين، ومن تفريط الواقعيين من البشر[15].

ونظراً للارتباط العضوي الحي بين الإسلام وحضارته، فقد جاءت معطيات هذه الحضارة المتباينة متّسمة بالواقعية، فلم تنحرف تجاه الروحانية المسيحية، أو المادية اليهودية. هذا ما كان في الماضي أما في واقعنا المعاصر، فإن الحضارة الإسلامية مطالبة أكثر من أي وقت مضى، بانتهاج هذه الواقعية، تجاه الماديات المعاصرة، التي أصبحت أصناماً عصرية تُعبد من دون اللّه الواحد القهّار.

---

(14) إبراهيم سليمان وآخر: المرجع السابق، ص 26.

(15) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص 142 ـ 143.

السّمة السابعة: التسامح

اتّسمت الحضارة الإسلامية بطابع التسامح وأتاحت مناخاً حرّاً لإبداع العقول والقرائح دون تعصّب أو مصادرة. وحسبنا انفتاحها على التراث الكلاسيكي الشرقي ـ الساساني ـ الصيني ـ الهندي ـ والغربي ـ الإغريقي والروماني ـ سواء بسواء تنهل منه ـ دون محاذير تُذكر ـ لتستوعب وتتمثل وتضيف وتبدع. وقد أشار «كلود كاهن» إلى أن روح التسامح تلك «لم تشهدها الحضارات العالمية قديماً أو حديثاً»، حيث أتيح لأهل الذمة من يهود ونصارى فضلاً عن الصابئة وغيرهم أن يعملوا جنباً إلى جنب مع المسلمين في تشييد صرح هذه الحضارة دون محاذير أو حساسيات دينية، وهل هنالك دليل على حرية الرأي أكبر مما يذكره المؤرخون من أن أهل الملل والنحل من سائر الديانات والمذاهب كانوا يتحاورون بحرية مطلقة في بلاط الخلفاء المسلمين، وفي موضوعات دينية وعقيدية دون مصادرة أو خوف أو تقية[16]؟.

السّمة الثامنة: التنوّع في إطار الوحدة

لقد لاحظ الكثير من المؤرخين والمستشرقين، أن حضارة الإسلام، هي حضارة «الوحدة والتنوّع». ويمكن القول، إن ذلك قد انعكس على ظاهرة نشوء الدويلات والكيانات الإقليمية في عالم الإسلام، فصرنا نجد تنوعاً في التشكيلات السياسية التي انشقت عن جسد الدولة، ونجد في الوقت نفسه وحدة وتجانساً وتكاملاً في العطاء الحضاري، وفي الأساليب والأهداف الكبرى. إن حضارة الإسلام إذ تقوم على قاسم مشترك من الأسس والثوابت والخطوط العريضة بغض النظر عن موقع الفعالية الحضارية في الزمان والمكان، وعن نمطها وتخصصها، فإنها تنطوي ـ في الوقت نفسه ـ على حشد من الوحدات المتنوعة بين بيئة ثقافية وأخرى في إطار عالم الإسلام نفسه، بحكم التراكمات التاريخية التي تمنح خصوصيات معينة لكل بيئة تجعلها تتغاير وتتنوع فيما بينها في صنوف من الممارسات والمفردات الثقافية. إنها جدلية التوافق بين الخاص والعام، أو ما يمكن عدّه أممية إسلامية تعترف بالتمايز بين الجماعات والشعوب والأمم، ولكنها تسعى في الوقت نفسه لأن تجمعها على صعيد الإنسانية[17].

ومن هنا نرى أن الأقاليم المتباينة داخل دار الإسلام، قد أسهمت بعطاءاتها الخاصّة، مع حفاظها على الطابع العربي الإسلامي العام. ونضرب على ذلك مثلاً بالغ الدلالة عن النمط العباسي في الفن الذي انتشر في سائر بقاع دار الإسلام محتفظاً بسمات أساسية تُميِّزه عن الطرز الأخرى. وفي ذات الوقت أضفت عليه الأنماط الإقليمية معطياتها الخاصة كي تزوده بزخم متنوع ومتجدد زاد النمط الأصلي ثراء وكفل له البقاء والاستمرار وهنا

(16) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 54 ـ 55.

(17) عماد الدين خليل: «الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين»، مجلة **إسلامية المعرفة**، العدد الخامس، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ماليزيا، السنة الثانية، صفر 1417هـ ـ يوليو 1996م، ص 68 ـ 69.

تسقط مزاعم بعض المستشرقين ومن جاراهم من المفكرين العرب المعاصرين الذين يروِّجون لمقولة خاطئة فحواها وجود قطيعة معرفية بين الشرق والغرب الإسلاميَّيْن[18].

وهكذا يكون عالم الإسلام قد شهد ـ بموازاة التنوّع السياسي ـ أنشطة معرفية متمايزة وثقافات شتى على مستوى الأعراق التي صاغتها: عربية وتركية وفارسية وصينية ومغولية وبربرية وإسبانية وزنجية وكردية وأفغانية وسلافية... إلى آخره. كما شهدت حضارة الإسلام أنماطاً ثقافية على مستوى البيئات والأقاليم: عراقية وشامية ومصرية وسودانية ومغربية وإسبانية وبحر متوسطية وإفريقية وأوروبية شرقية وإيرانية وتركية وتركستانية وهندية إلى آخره. وكانت كل جماعة ثقافية تمارس نشاطها بحرية وتُعبِّر من خلاله عن خصائصها، وتؤكد ذاتها، ولكن في إطار الأسس والثوابت الإسلامية، بدءاً من قضية اللغة والأدب وانتهاء بالعادات والتقاليد، مروراً بصيغ النشاط الفكري والثقافي بأنماطه المختلفة. ولقد كانت هذه الحقائق والممارسات جميعها فرصة لمزيد من التنوّع والخصب الفكري والعلمي لا بدّ من وضعه في الحسبان ونحن نتحدث عن قيم الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية[19].

وفي ضوء هذه المنطلقات، يمكن لنا التأكيد، على أن التنوع في إطار الوحدة، كان خاصية أساسية من خصائص الحضارة الإسلامية، التي أسهمت في إضفاء طابع من الثراء الحضاري على كل معطيات هذه الحضارة في جوانبها المتباينة، دون أن يمس ذلك ثوابتها الأساسية بأدنى تغيير، وذلك لأن الثوابت، تمثل الجانب السماوي لهذه الحضارة، أمّا المتغيرات فهي الجانب الأرضي لهذه الحضارة، وهو قابل للأخذ والعطاء، ومن ثمّ فإنّ التنوع أبرز سماته، كما أن الوحدة هي الخاصية الأساسية للجانب السماوي، ومن ثم تكون حضارتنا هي فعلاً حضارة التنوّع في إطار الوحدة.

السِّمة التاسعة: العالمية

ومعنى ذلك أنها ليست حضارة محصورة في جنس واحد من بني الإنسان أو في مجموعة أجناس وذلك تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (سبأ: 28). والواقع التاريخي يزيد هذا المعنى تأكيداً فقد وسعت هذه الحضارة سكان الدنيا كلها بالرغم من اختلاف عقائدهم وأنماط حياتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتعدُّد أجناسهم ولغاتهم سواءً من دخل منهم في دين الإسلام أم بقي في ظل الحضارة الإسلامية على دينه القديم. والدليل الواضح على عالمية الحضارة الإسلامية هو أن كل البيئات والشعوب التي عاشت في ظلال هذه الحضارة قد استطاعت أن تطور حياتها معنوياً ومادياً تطويراً واضحاً في ظلها وترتقي بجميع مكوّنات هذه الحياة رقياً كبيراً، في حين أنها كانت تعاني من تخلّف كبير في حياتها الروحية والعقلية والاجتماعية وأساليب

(18) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 56.
(19) عماد الدين خليل: المرجع السابق، ص 70.

العيش في مناطق ازدهار الحضارة الإسلامية في بلاد الشام والعراق وما وراءه والشمال الإفريقي؛ وفي جنوب غربي أوروبا شواهد تاريخية لا تقبل النقض تدل على أن أبناء هذه البلاد أنفسهم كانوا حَمَلَة لواء هذه الحضارة بعد أن هداهم الله إلى الدخول في الإسلام، فلم تكن تعاليمه مفروضة عليهم بل تمثّلوها في نفوسهم وآمنوا بها فأصبحوا جزءاً من نسيجها العضوي الحي[20].

السّمة العاشرة: قابلية التطور

رسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات والأديان، ورسوله الكريم (ص) خاتم الرسل، وحضارته المؤسّسة على هذه الرسالة استوعبت كل تطورات الحياة الإنسانية وما استجدّ في حياة الإنسان من تطورات، وهي كذلك لا تقف جامدة أمام متغيرات الحياة البشرية في واقعها الفردي والاجتماعي، عاجزة عن الفصل في القضايا المتجدّدة لهذا المجتمع البشري، في بيئاته المختلفة، المتنوّعة في نشاطها الإنساني وأنظمة حياتها. ومن ثمّ فإن علماء المسلمين في استجابتهم لدعوة الله قاموا بوضع الكثير من قواعد التشريع وأصوله، ليواجهوا ما يجدّ في حياة الإنسان من وقائع وقضايا مما لم يرد فيه نص قاطع من كتاب أو سنة، كذلك اجتهد المسلمون في مواجهة متغيرات الحياة اجتهاداً واسعاً استجابة لدعوة الله لهم لإعمال العقل والنظر في الكون من حولهم. فلم تصادفهم واقعة ولم تجدّ أمامهم حادثة إلاّ وكان لهم فيها رأي واجتهاد وحلّ، فخلّفوا لنا تلك الثروة الكبيرة من العلوم والفنون التي كانت وما تزال مَعْلَماً بارزاً من معالم الحضارة الإسلامية ومصدراً مهماً من مصادر التطور الإيجابي في الحضارات التي جاءت بعدها مثل الحضارة الأوروبية الحديثة[21].

السّمة الحادية عشرة: الجمع بين الثبات والمرونة

ربما يسأل سائل: لماذا كان هذا هو شأن الإسلام؟ لماذا لم يُودِعه الله المرونة المطلقة أو الثبات المطلق؟ والجواب هو أن الإسلام بهذا، يتسق مع طبيعة الحياة الإنسانية بخاصّة، ومع طبيعة الكون الكبير بعامة، فقد جاء هذا الدين مسايراً لفطرة الإنسان وفطرة الوجود. أما طبيعة الحياة الإنسانية نفسها، ففيها عناصر ثابتة باقية ما بقي الإنسان، وعناصر مرنة قابلة للتغير والتطور[22].

وفي ضوء هذه المنطلقات الإيمانية استطاع المسلمون في العصور الذهبية أن يحتفظوا بشخصيتهم الإسلامية، ثابتين على عقائدهم وشعائرهم وأخلاقهم وشريعتهم، وأن يقتبسوا مع هذا من مدنيات الفرس والروم والهنود وغيرهم من القدماء ما ينفعهم ويلائم

(20) إبراهيم سليمان وآخر: المرجع السابق، ص 22.
(21) إبراهيم سليمان وآخر: المرجع السابق، ص 22 ـ 24.
(22) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص 196.

أوضاعهم، وأن ينتفعوا بتراث الإغريق (العلمي) بعد أن عرّبوه وهذّبوه وأضافوا إليه ـ وأيّد ذلك فقهاؤهم وأئمة دينهم ـ بل ساهموا وشاركوا فيه ولم يتوقفوا إلاّ فيما رأوه معارضاً لعقيدتهم وفكرتهم عن الله والوجود أو لمنهجهم الفكري، وذلك يتمثل في الجانب (الميتافيزيقي) من الفلسفة الإغريقية، كما تمثل في منطق أرسطو الذي عارضه جماعة من أكابر العلماء مثل ابن الصلاح، والنووي، وابن تيمية الذي ألف في نقضه على أساس عقلي وعلمي بحت كتابين صغيراً وكبيراً. وسبق بهذا النقض العصر الحديث الذي أقام نهضته على الاستقراء، لا على القياس الذي هو محور المنطق الأرسطي. وقد أثبت مؤرخو الحضارة الإسلامية أن المنهج العلمي الحديث الذي يتميّز به الغرب قد اقتُبس من المسلمين، الذين سبقوا إلى اكتشاف هذا المنهج كاملاً قبل نهضة أوروبا بعدة قرون. وقد شهد بذلك جورج سارتون، وجوستاف لوبون، وبريفولت، وغيرهم من الغربيين المنصفين. وما زال تاريخ العلم يحتفظ بأسماء لا حصر لها لعلماء مسلمين في الطب والكيمياء والفيزياء والفلك وغيرها من العلوم، كما يحتفظ بأسماء كتب علمية ظلّت مراجع علمية فذّة في موضوعها لعدة قرون[23].

السّمة الثانية عشرة: المزج بين عالم الروح وعالم المادة

الإنسان في مفهوم الحضارة الإسلامية، هو ذلك الكائن المادي والروحي، وحياته الصالحة المستقيمة هي تلك التي يراعى فيها هذا الجانب وذاك، ويظهر ذلك جلياً في تعاليم الإسلام وتشريعاته، فإلى جانب الدعوة إلى الإيمان والحرص على العبادة نجد الدعوة إلى الأخذ بالأسباب المادية للحياة، ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتّقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ (البقرة: 1 ـ 5). وقوله تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ (الملك: 15).

وعلى هذا الأساس أقام المسلمون صرح الحضارة الإسلامية بمعطياتها الروحية والمادية مما جعلها تحقق للإنسانية أقصى درجات طموحها في تلك العصور التي كان فيها العالم من حولها يعيش خواءً روحياً وأخلاقياً وتخلفاً واضحاً في صناعة الحياة، مقصّراً عن بلوغ الغايات الإنسانية السامية التي بلغتها الحضارة الإسلامية في فترة قصيرة من عمر الزمن، حيث كان كل نشاط مادي في ظلها له غاية أخلاقية، وفيه جانب روحي، فالرسول (ص) يقول: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلاّ كانت له به صدقة»، ويتمثل الجمع بين الروحانية المعتدلة والمادية المقتصدة[24]، في هذه الآية القرآنيّة ﴿وابتغ في ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا﴾ (القصص: 77).

---

(23) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص 230 ـ 231.

(24) إبراهيم سليمان وآخر: المرجع السابق، ص 26 ـ 27.

السّمة الثالثة عشرة: التوسط

يقول اللّه في كتابه العزيز: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة: 143). وفي ضوء هذه الآية الكريمة يمكن القول بأن التوسط يعني الوسطية أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل، ولا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه، ومن أمثلة الأطراف المتقابلة أو المتضادة: الروحانية والمادية، الفردية والجماعية، الواقعية والمثالية، الثبات والتغير، وما شابهها. ومن معاني الوسطية التي وصفت بها الأمة في الآية الكريمة ورتبت عليها شهادتها على البشرية كلها: العدل، الذي هو ضرورة لقبول شهادة الشاهد، فما لم يكن عدلاً، فإن شهادته مردودة ومرفوضة. أما الشاهد العدل والحاكم العدل فهو المرضي بين كافة الناس[25].

ولهذا جاء الإسلام ـ وهو دين الفطرة ـ نظاماً وسطاً عدلاً، لا يجور على الفرد لحساب المجتمع، ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد. لا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي تمنح له، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تلقى عليه. وإنما يكلفه من الواجبات في حدود وسعه دون حرج ولا إعنات، ويقرر له من الحقوق ما يكافئ واجباته، ويلبي حاجته، ويحفظ كرامته، ويصون إنسانيته[26].

وفي ضوء هذه المنطلقات جاءت معطيات الحضارة الإسلامية وسطاً بين معطيات الحضارات الأخرى، مما أضفى عليها طابعاً من التفرّد، وكانت بحق حضارة الوسطية، التي جاءت لإقامة التعادل الحضاري في الكون الرحيب، ولا غرابة في هذا فهي حضارة الأمة الوسط. ولعلّه غير خاف علينا أن الذي أضفى عليها هذا الشرف الرفيع هو رب العزّة جلّ جلاله، فضلاً عن أنه تبارك وتقدّس قد جعلها شاهدة على أمم الأرض قاطبة فأكرم بهذا الشرف من رفعة وعزّة.

السّمة الرابعة عشرة: التوازن

من يدرس الأديان والمبادئ الوضعية، يجد لوناً من الاندفاع في هذا الاتجاه أو ذاك، فبعض الديانات أهملت بدن الإنسان إهمالاً تامّاً؛ وتوجهت إلى الروح، حتى أنها حصرت كل جهودها في الإنعاش الروحي، على حساب الجسم، وما زال العالم يذكر أن بعض القساوسة والرهبان كان يفتخر بأنه عاش ولم يغسل جسمه، وأن بوذا جلس تحت شجرة عدة أعوام لم يغادرها. وفي المقابل نجد هناك من يتصوّر أن الإنسان عقل فقط ومن ثم فإن عليه أن يهتم بعقله، أما روحه فلا تذكر ولا يهتم بها، ولما كان الإنسان روحاً وعقلاً وجسداً فلا بدّ من أن ينمو نمواً متوازناً، وإلاّ أصيب الإنسان بنوع من الخلل وتعثّرت حياته[27].

---

(25) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص 114 ـ 118.

(26) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص 135.

(27) نعمان عبد الرزاق السامرائي: المرجع السابق، ص 106.

أما الحضارة الإسلامية، فقد قامت على التوازن الحق، منذ أول يوم لانبثاقها الحي من رحم التاريخ، حيث أنه من الضرورة بمكان في منظورها أن يفسح لكل طرف في الحياة مجاله، ويُعطى له حقه «بالقسط» أو «بالقسطاس المستقيم» بلا وكس ولا شطط، ولا غلو ولا تقصير، ولا طغيان ولا إخسار، كما أشار إلى ذلك كتاب الله بقوله: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان، ألاّ تطغوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾ (الرحمٰن: 7 ـ 9). وهذا في الحقيقة أكبر من أن يقدر عليه الإنسان بعقله المحدود وعلمه القاصر، فضلاً عن تأثير ميوله ونزعاته الشخصية والأسرية والحزبية والإقليمية والعنصرية وغلبتها عليه من حيث يشعر أو لا يشعر، ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يصنعه بشر ـ فرد أو جماعة ـ من الإفراط أو التفريط، كما يدل على ذلك استقراء الواقع وقراءة التاريخ[28].

ومن هنا يمكن القول بأن الحضارة الإسلامية، هي الوحيدة التي تقوم في لحمتها وسداها على مبدأ التوازن. ولم تنتكس إلاّ عندما تنكّر المسلم المعاصر لمعطيات القرآن الكريم في هذا السياق، وراح يأخذ من الحضارة الوضعية التي أعلت الجانب المادي على حساب الجانب الروحي، فأصابه الشقاء كما أصاب الإنسان المعاصر، الذي أصبح حائراً لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع من منهج السماء، ولم يصبح همّه إلاّ الاستهلاك، والإغراق في الشهوات، ولا منقذ له من هذا الوضع إلاّ العودة إلى الدين.

السّمة الخامسة عشرة: الوضوح

من مظاهر الوضوح في الحضارة الإسلامية، وضوح الأهداف والغايات. فغاية الحضارة الإسلامية، واضحة أمام عيني كل مسلم، يكفي أن يقرأ المسلم هذه الآية من كتاب ربه، فيعرف بإجمال وتركيز تلك الغاية الكريمة، حيث يقول تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾ (إبراهيم: 1). إذن فغاية الحضارة الإسلامية بإجمال، هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفسّر الظلمات بما شئت من الجهل أو الشرك، أو الشك أو الظلم، أو الحقد أو غير ذلك، فلا حرج عليك، فكلها ظلمات، تُظلم بها النفس، وتُظلم بها الحياة معاً. وفسّر النور بما شئت من العلم أو التوحيد أو اليقين أو العدل أو الحب، أو غير ذلك، فلا حرج عليك. ويترجم الصحابي الجليل ربعي بن عامر، هذه المعاني بما عبّر عنه أمام القائد الفارسي رستم، حين سأله رستم: من أنتم؟ فأجابه بقوله: «نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام». ويكفي أن يكون المسلم على شيء من الفقه في دينه، ليعلم أنه يهدف إلى تكوين الفرد الصالح، والأسرة الصالحة والأمة الصالحة[29].

(28) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص 114.
(29) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص 178 ـ 179.

وهكذا تركت تعاليم الإسلام الخالد، بصماتها الحية على تكوين آفاق وملامح الحضارة الإسلامية، فجاءت معطياتها واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، وذلك بعكس غيرها من الحضارات التي استمدت مقوِّماتها الوجودية من الغموض بدلاً من الوضوح.

السّمة السادسة عشرة: الجمع بين الجانب التطبيقي والتنظيري

تميَّزت الحضارة الإسلامية بالطابع التطبيقي إلى جانب التنظير، وهو أمر افتقرت إليه الحضارات السابقة حيث حفلت حضارة اليونان بالجانب التنظيري فقط، في حين ركزت حضارة الرومان على الجانب التطبيقي. وهنا تبرز الحضارة الإسلامية حين تبدع في المجالين معاً وتكرِّس الجانب التنظيري في خدمة الجانب التطبيقي في جميع المناحي الحياتية[30].

وفي ضوء ما تقدَّم، يمكن القول بأن هذه الخصائص المتميِّزة في نسيجها العضوي الحي، هي التي أضفت طابعاً من الشمولية على معطيات الحضارة الإسلامية، وذلك لأنها جمعت في وحدة موضوعية ما بين الثوابت والمتغيِّرات، ولعلَّ هذا هو الذي جعل منها حضارة حيَّة ديناميةً متفجِّرة على الدوام، مما ضمن لها الاستمرارية فضلاً عن البقاء في دنيا الناس إلى ما شاء الله. ومن هنا فنحن في حاجة ماسة إلى هذه الحضارة لكي تساعدنا على تحقيق رسالتنا في الكون كامة وسطى. وصدق الله تعالى عندما قال: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة: 143).

(30) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 56 ـ 57.